درسٌ من النُّبوَّة

قالوا : إنَّه لما نَصر اللهُ تعالى رسولَه ، وردَّ عنه الأحزابَ ، وفتح عليه قُرَيْظَة ، والنَّضِير[1] ؛ ظنَّ أزواجُه ﷺ أنَّه اختصَّ بنفائسِ اليهود ، وذخائرِهم ؛ وكنَّ تِسْعَ نِسوةٍ : عائشة ، وحَفْصة ، وأمَّ حبيبة ، وسَوْدة ، وأمَّ سَلَمة ، وصفيَّة ، وميمونة ، وزينب ، وجُوَيْرِية ؛ فقعدنَ حوله ، وقلن : يا رسولَ الله ! بناتُ كِسرى ، وقَيْصَرَ في الْحَلْي ، والحُلَلِ ، والإماء ، والخَوَل ، ونحن ما تراه من الفاقةِ ، والضِّيق . . . وآلَمْنَ قلبَه بمطالبتهنَّ له بتَوْسِعَة الحالِ ، وأن يعامِلَهُنَّ بما تُعامِلُ به الملوكُ ، وأبناء الدُّنيا أزواجَهم ؛ فأمره الله تعالى أن يتلوَ عليهن ما نزل في أمرهنَّ من تخييرهنَّ في فراقه ، وذلك قولهُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا[2] جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [الأحزاب : ٢٨ ـ ٢٩] .

قالوا : وبدأ ﷺ بعائشة ـ وهي أحبُّهنَّ إليه ـ فقال لها : « إني ذاكرٌ لك أمراً ما أُحب أن تعجَلي فيه حتَّى تَسْتأمري أبوَيك » . قالت : ما هو ؟ فتلا عليها الآية . قالت : أفيكَ أستأمرُ أبويَّ ؟ بل أختارُ اللهَ تعالى ، ورسولَه[3] .

ثم تَتَابَعْنَ كلُّهن على ذلك ، فسمَّاهنَّ الله : « أمَّهات المؤمنين » ، تعظيماً لحقِّهنَّ ، وتأكيداً لحرمتهنَّ ، وتفضيلاً لهنَّ على سائر النِّساء .

* * *

هذه هي القصَّة كما تُقرأ في التاريخ ، وكما ظهرت في الزَّمان ، والمكان ، فلنقرأها نحن كما هي في معاني الحكمة ، وكما ظهرتْ في الإنسانيَّة العالية ؛ فسنجدُ لها غَوْراً بعيداً ، ونعرفُ فيها دَلالةً سامية ، ونتبيَّنُ تحقيقاً فلسفيّاً دقيقاً للأوهام والحقائق .

---

(١) هما حيَّان من أحياء اليهود بالمدينة ، وكان ذلك في أواخر سنة خمسٍ للهجرة . (ع) .

(٢) « السراح » : الطلاق . ومُتعة الطلاق : ما تُعطاه المطلقة ، وهو يختلف حسب السعة والإقتار . (ع) .

(٣) رواه البخاري (٤٧٨٥ و٤٧٨٦) ومسلم (١٤٧٥) .

وهي قبل كلِّ هذا ، ومع كلِّ هذا تنطوي على حكمةٍ رائعةٍ لم يتنبّه لها أحدٌ ، ومن أجلها ذُكِرتْ في القرآن الكريم ؛ لتكون نصّاً تاريخيّاً قاطعاً يُدَافِعُ به التَّاريخُ عن هذا النَّبيِّ العظيم في أمرٍ من أمر العقل ، والغريزة ، فإنَّ جَهَلَةَ المبشِّرين في زمننا هذا ، وكثيراً من أهل الزَّيغ والإلحاد ، وطائفةً من قِصَار النَّظرِ في التحقيق ـ يزعمون أنَّ محمداً ﷺ إنما استكثَرَ من النِّساء لأهواءٍ نفسيَّة محضةٍ ، وشهواتٍ كالشَّهوات ؛ ويَتَطرَّقون من هذا الزَّعم إلى الشُّبهة ، ومن الشُّبهةِ إلى سوء الظَّنِّ ، ومن سوء الظَّنِّ إلى قبح الرأي ؛ وكلُّهم غبيٌّ جاهلٌ ؛ فلو كان الأمر على ذلك ، أو على قريبٍ منه ، أو نحوٍ من قريبه ، لما كانت هذه القصَّةُ الَّتي أساسُها نفيُ الزِّينة ، وتجريدُ نسائه جميعاً منها ، وتصحيحُ النِّيَّة بينه وبينهنَّ على حياة لا تحيا فيها معاني المرأة ، وتحتَ جوٍّ لا يكونُ أبداً جوَّ الزَّهر . . . وأمرُه من قِبَل ربِّه أن يخيِّرهنَّ جميعاً بين سَرَاحِهنَّ فيكنَّ كالنِّساء ، ويجدْنَ ما شئن من دنيا المرأة ، وبين إمساكِهنَّ فلا يكنَّ معه إلا في طبيعةٍ أخرى تبدأ من حيث تنتهي الدُّنيا ، وزينتُها .

فالقصَّة نفسُها ردٌّ على زعم الشَّهوات ؛ إذ ليست هذه لغةَ الشَّهوة ، ولا سياسةَ معانيها ، ولا أسلوب غضبها ، أو رضاها . وما ها هنا تمليقٌ ، ولا إطراءٌ ، ولا نُعومةٌ ، ولا حرصٌ على لذَّةٍ ، ولا تعبيرٌ بلغة الحاسَّة ؛ والقصَّةُ بعد مكشوفةٌ صريحةٌ ، ليس فيها معنىً ، ولا شبهُ معنى من حرارة القلب ، ولا أثرٌ ، ولا بقيَّةُ أثرٍ من ميل النَّفس ، ولا حرفٌ ، أو صوتُ حرفٍ من لغة الدَّم . وهي على منطقٍ آخرَ غير المنطق ؛ الذي تُستمالُ به المرأة ، فلم تقتصر على نفي الدُّنيا ، وزينة الدُّنيا عنهنَّ ، بل نَفَت الأمَلَ في ذلك أيضاً إلى آخر الدَّهر ، وأماتت معناه في نفوسهنَّ ، بقَصْر الإرادة منهنَّ على هذه الثلاثة : اللهُ في أمره ، ونهيه ، والرسولُ في شدائده ، ومُكابَدَتِه ، والدَّارُ الآخرةُ في تكاليفها ، ومَكَارهها . فليس هنا ظَرفٌ ، ولا رقَّةٌ ، ولا عاطفةٌ ، ولا سياسةٌ لطبيعة المرأة ، ولا اعتبارٌ لمزاجها ، ولا زُلْفَى[1] لأنوثتها ؛ ثُمَّ هو تخييرٌ صريحٌ بين ضدَّين لا تتلوَّنُ بينهما حالةٌ تكونُ منهما معاً ، ثُمَّ هو عامٌ لجميع زوجاتِه ، لا يستثني منهنَّ واحدةً ، ولا أكثر .

والحريصُ على المرأة والاستمتاع بها لا يأتي بشيءٍ من هذا ، بل يخاطبُ في

---

(١) « زلفى » : منزلة .

المرأة خيالَها أوَّلَ ما يخاطب ، ويُشبِعُه مبالغةً ، وتأكيداً ، ويُوسِعُه رَجاءً ، وأملاً ، ويقرِّبُ له الزَّمنَ البعيدَ ، حتَّى لو كان في أوَّل الليل وكان الخلافُ على الوقت ، لحقَّق له : أنَّ الظهرَ بعد ساعةٍ . . .

* * *

وبرهانٌ آخرُ ، وهو : أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يتزوَّج نساءه لمتاعٍ ممَّا يُمتِّع الخيالُ به ، فلو كان وَضْعُ الأمر على ذلك لما استقام ذلك إلا بالزِّينة ، وبالفنِّ النَّاعم في الثَّوب ، والحِلْية ، والتشكُّل كما نرى في الطَّبيعة الفنيَّة ، فإنَّ الممثلةَ لا تمثِّل الرِّواية إلا في المسرح المهيَّأ بمناظِرِه ، وجَوِّه . . . وقد كان نساؤه ﷺ أعرفَ به ؛ وها هو ذا ينفي الزِّينةَ عنهنَّ ، ويخيرهنَّ الطَّلاقَ إذا أَصْرَرْنَ عليها . فهل ترى في هذا صورةَ فكرٍ من أفكار الشَّهوة ؟ وهل ترى إلا الكمالَ المحض ؟ وهل كانت متابعَةُ الزَّوجات التِّسع إلا تسعةَ بُرهاناتٍ على هذا الكمال ؟

وكأنَّ النَّبيَّ ﷺ يُلقي بهذه القصَّة درساً مستفِيضاً في فلسفة الخيال ، وسوء أثره على المرأة في أنوثتها ، وعلى الرَّجل في رجولته ؛ وأنَّ ذلك تعقيدٌ في الشَّهوات ، يقابله تعقيدٌ في الطَّبع ، وكَذِبٌ في الحقيقة ينشأ عنه كذبٌ في الخُلُق ، وأنَّه صَرْفٌ للمرأة إلى حياة الأحلام ، والأمانيِّ ، والطَّيش ، والبطَر ، والفراغ ، وتعويدُها عاداتٍ تُفسِد عاطفتَها ، وتُضيف إليها التصنُّعَ ، فتُضعفُ قوَّتَها النَّفسيَّةَ القائمةَ على إبداع الجمال من حقيقتها ، لا من مظهرها ، وتحقيق الفائدة من عملها ، لا من شكلها .

وكلُّ محاسن المرأة هي خيالٌ متخيَّلٍ ، ولا حقيقةَ لشيءٍ منها في الطَّبيعة ، وإنَّما حقيقتُها في العين النَّاظرةِ إليها ؛ فلا تكونُ امرأةٌ فاتنةً إلا للمفتونِ بها ليس غير . ولو ردَّت الطَّبيعةُ على من يُشَبِّبُ بامرأةٍ جميلةٍ فيقول لها : هذه محاسنُكِ ، وهذه فتنتُك ، وهذا سحرك ، وهذا ، وهذا! لقالت له الطبيعة : بل هذه كلُّها شهواتُكَ أنت[1] . . .

وبهذا يختلفُ الجمالُ عند فقد النَّظر ؛ فلا يفتن الأعمى جمالُ الصُّورة ، ولا سحرُ الشَّكل ، ولا فَراهةُ المنظر ، وإنَّما يفتنه صوتُ المرأة ، ومَجَسَّتُها ، ورائحتُها .

---

(١) بسطنا هذا المعنى في كثير مما كتبناه ، وخاصة في كتاب : السحاب الأحمر . (ع) .

فلا حقيقةَ في المرأة إلا المرأةُ نفسُها ؛ ولو أُخِذتْ كلُّ أنثى على حقيقتها هذه ؛ لما فسدَ رجلٌ ، ولا شقيت امرأةٌ ، ولا انتظمت حياةُ كلِّ زوجين بأسبابها الَّتي فيها . وذلك هو المثلُ المضروب في القصَّة .

يريد النَّبيُّ ﷺ ليعلِّم أمَّتَه أنَّ حَيْف[١] الغريزة على العقل إفسادٌ لهذا العقل ، وأنَّه متى أخذت المرأة لحظ الغريزة ، واختيارِها ؛ كانت حياتُها استجابةً لجنون الرَّجل ، وملأتها معاني التزيُّدِ والتصنُّع ؛ فيوشِكُ أن ينقلَها هذا عن طبيعتها السَّامية الَّتي أكثرُها في الحرمانِ ، والإيثار ، والصَّبرِ ، والاحتمال ، ويردَّها إلى أضدادِ هذه الصِّفات ، فيقومُ أمرها بعدُ على الأثرة ، والمصلحةِ ، والتَّفادي[٢] ، والضَّجَرِ ، والتبرُّم ، والإلحاح ، والإزعاج ، ويضعفُ معنى السَّلْبِ الرَّاسخِ في نفسها من أصل الفطرة ، فيتبدَّلُ حياؤُها ، وفي الحياء ردُّها عن أشياء ؛ ويقلُّ إخلاصُها ، وفي الإخلاص ردٌّ لها عن أشياء أخرى ؛ ويكثرُ طمعُها ، وفي قناعتها مُحاجَزَةٌ بينها وبين الشَّرِّ .

وبهذا ونحوه يفسدُ ما بين الرَّجل والمرأة المتصنِّعة ؛ فإذا كثُر المتصنِّعات لا يكون من النِّساء مَشاكلُ فقط ، بل تكونُ من حلُول المشاكلِ معهنَّ مشاكلُ أخرى . . .

* * *

ولُبابُ هذه القصَّة : أنَّ النَّبيَّ ﷺ يجعلُ نفسَه في الزواج المثَلَ الشَّعبيَّ الأكملَ ، كما هو دأبه في كلِّ صفاته الشَّريفة ، فهو يريد أن تكونَ زوجاته جميعاً كنساء فقراء المسلمين ، ليكونَ منهنَّ المثَلُ الأعلى للمرأة المؤمنةِ العاملةِ الشَّريفةِ ؛ التي تَبْرَعُ البراعةَ كلَّها في الصَّبر ، والمجاهدةِ ، والإخلاص ، والعفَّةِ ، والصَّراحة ، والقناعة ، فلا تكونُ المرأة زينةً تَطْلُبُ زينةً ؛ لتتمَّ بها في الخيال ، ولكن إنسانيةً تطلبُ كمالَها الإنسانيَّ ؛ لتتمَّ به في الواقع .

وهذه الزِّينةُ الَّتي تتصنَّع بها المرأة تكاد تكون صورةَ المكر ، والخداع ، والتعقُّد ، وكلَّما أسرفتْ في هذه ؛ أسرفتْ في تلك ، بل الزِّينة لوجه المرأة ،

(١) « حيف » : الحيْف : الميل في الحكم ، والجور ، والظلم .
(٢) « التفادي » : تفادى فلانٌ فلاناً ، ومنه : تحاماه ، وابتعد عنه .

وجسمِها سلاحٌ من أسلحة المعاني : كالأظافر ، والمخالب ، والأنياب ، غير أنَّ هذه لِوحْشِيةِ الطَّبيعةِ الحيَّةِ المفترِسة ، وتلك لوحشيةِ الغريزةِ الحيَّة ؛ الَّتي تريد أن تفترس . ولا تنكر المرأةُ نفسُها : أنَّ الزِّينةَ على جسمها ثرثرةٌ طويلةٌ تقولُ ، وتقولُ ، وتقولُ . . .

* * *

وإنَّما يكونُ أساسُ الكمال الإنسانيِّ في الإنسان العاملِ المجاهدِ ، لا يحصُرُ نفسَه في شيءٍ يسمَّى متاعاً ، أو زينةً ، ولا يقدِّر نفسَه بما يجمع لها ، أو بما يجمعُ حولها ، ولا يعتدُّ ما يكون من ذلك إلا كالتَّعبير من عمل الشَّهوات عن الشَّهوات . ونبيُّنا ﷺ هو الغايةُ في هذا . دخل عليه مرَّةً عمر بن الخطاب ، فإذا هو على حَصيرٍ وعليه إزارُه ، وليس عليه غيرُه ، وإذا الحصيرُ قد أثَّر في جنبه . قال عمر : وإذا أنا بقَبْضةٍ من شعيرٍ نحو الصَّاع ، وإذا إهابٌ[1] معلَّق ، فابتَدَرَتْ عيناي ، فقال : « ما يُبكيكَ يا بنَ الخطاب ؟ » قال : عمر : يا نبيَّ الله ! ومالي لا أبكي وهذا الحصيرُ قد أثَّر في جنبك ، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك كسرى ، وقيصرُ في الثِّمارِ ، والأنهار ، وأنت نبيُّ الله ، وصفوته ، وهذه خزائنك[2] ؟!

وجاء مرَّةً من سفَرٍ ، فدخل على ابنته فاطمة رضي الله عنها فرأى على بابها سِتْراً ، وفي يديها قُلْبَيْنِ[3] من فضَّة ، فرجع . فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي ، فأخبرتْه برجوع أبيها ، فسأله في ذلك فقال ﷺ : « من أجل الستر ، والسَّوارين » .

فلمَّا أخبرها أبو رافع ؛ هتكت السِّتر[4] ونزعت السَّوارين ، فأرسلتْ بهما بِلالاً إلى النَّبيِّ ﷺ وقالت : قد تصدَّقتُ به ، فضعْه حيث تَرى . فقال لبلال : « اذهبْ ،

---

(١) كيس من جلد كان يتَّخذه العرب وعاء . (ع) .

(٢) الروايات من مثل هذا كثيرة عنه ﷺ ، وقد بسطنا فلسفة هذه المعاني في مقال : سموّ الفقر . (ع) .
قلت : الحديث رواه ابنُ ماجه (٤١٥٣) والحاكم (٤/ ١٠٤) وابن حبان (٤١٨٨) .

(٣) « القُلْب » ـ بالضم ـ : سوارٌ من الفضَّة غير ملويّ ، هو الذي يُقال له اليوم : (الغويشة) وهو خفيف . (ع) .

(٤) أي : مزَّقته . وكذلك رأى مرةً ستراً على باب عائشة ـ رضي الله عنها ـ فهتكه ، وقال : « كلَّما رأيتُه ذكرتُ الدنيا . أرسلي به إلى آل فلان » . (ع) .

فبِعْه ، وادفعْه إلى أهلِ الصُّفَّة[1] » . فباع القُلبين بدرهمين ، ونصف (نحو ثلاثة عشر قرشاً) وتصدَّق به عليهم[2] .

يا بنتَ النَّبي العظيم ! وأنتِ أيضاً لا يرضَى لك أبوكَ حِلْيَةً بدرهمين ونصف ، وإنَّ في المسلمين فقراء لا يملكون مثلَها .

أيُّ رجلٍ شَعْبيٍّ على الأرض كمحمَّدٍ ﷺ ؟! فيه للأمَّة كلِّها غريزةُ الأب ، وفيه على كلِّ أحواله اليقينُ الَّذي لا يتحوَّل ، وفيه الطَّبيعةُ التَّامَّة التي يكونُ بها الحقيقيُّ هو الحقيقيَّ .

يا بنتَ النَّبيِّ العظيم ! إنَّ زينةً بدرهمين ونصف ، لا تكون زينةً في رأي الحقِّ إذا أمكن أن تكون صَدَقَةً بدرهمين ونصف . إنَّ فيها حينئذٍ معنىً غيرَ معناها ، فيها حقُّ النَّفس غالباً على حقِّ الجماعة ، وفيها الإيمانُ بالمنفعة حاكماً على الإيمان بالخير ؛ وفيها ما ليس بضروريٍّ قد جار على ما هو الضَّروري ؛ وفيها خطأٌ من الكمال إن صحَّ في حساب الحلال ، والحرام ؛ لم يصحَّ في حساب الثَّواب ، والرَّحمة .

تعالَوا أيُّها الاشتراكيُّون ، فاعرِفوا نبيَّكم الأعظم ؛ إنَّ مذهبَكم ما لم تُحْيِه فضائلُ الإسلام ، وشرائعُه . إنَّ مذهبَكم لكالشَّجرة الذَّابلة تعلِّقون عليها الأثمارَ ، تَشُدُّونها بالخيط . . . كلَّ يومٍ تَحِلُّون ، وكلَّ يوم تَرْبِطُون ، ولا ثمرة في الطَّبيعة .

ليست قصَّةُ التَّخيير هذه مسألةً من مسائل الغنى ، والفقر في معاني المادَّة ، ولكنَّها مسألةٌ من مسائل الكمَال ، والنَّقص في معاني الرُّوح ؛ فهي صريحةٌ في أنَّ النَّبيَّ ﷺ أستاذُ الإنسانيَّة كلِّها ؛ واجبُه أن يكونَ فضيلةً حيَّةً في كلِّ حياةٍ ، وأن يكونَ عَزاءً في كلِّ فقرٍ ، وأن يكونَ تهذيباً في كلِّ غنىً ، ومن ثَمَّ فهو في شخصه ، وسيرته القانونُ الأدبيُّ للجميع .

وكأنَّه ﷺ يُريد ليعلِّم الأمَّةَ بهذه القصَّة : أنَّ الجماعاتِ لا تَصلُحُ بالقوانين ، والشَّرائع ، والأمر ، والنَّهي ، ولكن بعمل عظمائها في الأمر ، والنَّهي ، وأنَّ

(١) « الصفة » : الغرفة . وأهل الصفة : هم فقراء المهاجرين ، ومَنْ لم يكن له منهم منزلٌ يسكنه ، فكانوا يأوون إلى موضعٍ مُظَلَّل في مسجد المدينة يسكنونه . (ع) .

(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٧٥) وأبو داود (٤٢١٣) .

الحاكم على النَّاس لا ينبغي أن يحكم إلا إذا كان في نفسه ، وطبيعته يُحِسُّ فتنةَ الدُّنيا إحساسَ المتسلِّط لا الخاضع ، ليكون أولُ استقلاله استقلالَ داخِله .

فليس ذلك فقراً ، ولا زهداً ، كما ترى في ظاهر القصَّة ، ولكنَّها النَّفس العُظمَى في تقريرِ حقائقها العمليَّة .

* * *

وتنتهي القصَّة في عبارة القرآن الكريم بتسمية زوجاته ﷺ : « أمَّهاتِ المؤمنين » بعد أن اخترْنَ اللهَ ، ورسولَه ، والدَّارَ الآخرة ؛ وعلماءُ التَّفسير يقولون : إنَّ الله تعالى كافأهنَّ بهذه التَّسمية ، وليس ذلك بشيءٍ ، ولا فيه كبيرُ معنىً ، وإنَّما تُشْعِرُ هذه التَّسميةُ بمعنىً دقيقٍ ، هو آيةٌ من آيات الإعجاز ؛ فإنَّ الزَّوجة الكاملةَ لا تكملُ في الحياة ، ولا تكملُ الحياةُ بها إلا إذا كان وصْفُها مع رجُلها كوصفِ الأمِّ : ترى ابنَها بالقلب ، ومعانيه ، لا بالغريزة ، وحُظوظِها ، فكلُّ حياةٍ حينئذٍ ممكنةُ السَّعادةِ لهذه الزَّوجة ، وكلُّ شقاءٍ محتمَلٌ بصبرٍ ، وكلُّ جهادٍ فيه لذَّتهُ الطَّبيعية ؛ إذ يقومُ البيتُ على الحبِّ ؛ الذي هو الحبُّ الخالصُ ، لا المنفعة ، وتكونُ زينةُ الحياة وجودَ الحيِّ نفسه ، لا وجودَ المادَّة ، وتُبْنَى النَّفسُ على الوفاء الطَّبيعيِّ كوفاء الأمِّ ، وذلك خُلُقٌ لا يَعْسُرُ عليه في سبيلِ حقيقته أن يتغلَّب على الدُّنيا ، وزينتِها .

وآخِرُ ما نستخرجُ من القصَّة في درس النُّبوَّة هذه الحكمة :

بِحَسْبِ المؤمن إذا دخَلَ دارَه أن يجدَ حقيقةَ نفسِه الطَّيِّبة ، وإن لم يجد حقيقةَ كِسْرَى ، ولا قَيصر .

* * *